سورة الحجرات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١ ﴾

لاَ تُقَدِّمُوا: لا تقطعوا أمرا وتجزموا به.

إن وضع رأينا الشخصي فوق رأي الرسول حرام بصريح هذا النص القرآني . وقد كانت صورة ذلك الرسول - ﷺ- على قيد الحياة ، أن يسبقه أحد بالجواب في مسألة تعرض في مجلسه ، وبالتالي يحاول تقديم قوله على قول الرسول . وأما بعد وفاته - عليه الصلاة والسلام - فيعني ذلك أن يأخذ المرء في تكوين آرائه ومواقفه تجاه شتى القضايا والشئون الحياتية متحرراً من هداية الله غير متقيدٍ بتوجيهات رسوله الكريم ، وإنما يقع المرء في غفلةٍ كهذه لأنه يغيب عن باله أن الله رقيب عليه يرصد كل حركاته وسكناته ، ولو أدرك المرء أن صوته يصل إلى الله قبل وصوله إلى مسامع الناس لاحتبس لسانه في فمه ، ولصار أكثر ميلاً إلى أن يلزم الصمت منه إلى أن يتكلم !!

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَٱللَّهُ

غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤﴾

أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ: كراهة أن تبطل أعمالكم.

يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ: يخفضونها ويخافتون بها.

امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ: أخلصها وصفاها.

الْحُجُرَاتِ: حجرات زوجاته ﷺ .

إن أعراب البوادي لم يكونوا على جانبٍ كبيرٍ من النضج الفكري والشعوري ، حتى إن بعض رؤسائهم كانوا إذا جاءوا إلى مجلس رسول الله - ﷺ - يخاطبونه باسمه قائلين " "يا محمد" بدلاً من : "يا رسول الله"، أو "يا نبي الله" . كما كان أسلوب حديثهم معه يتسم بالكبر والتعالي بدلاً من التواضع والانكسار، فنزل الوحي ينهاهم عن هذا الأسلوب وتلك الطريقة في المحادثة والخطاب . وحيث إن الرسول يكون مندوب الله في الأرض ؛ فإن سوء الأدب في حضرته على هذا النحو سوء تأدبٍ مع الله - عز وجل، مما من شأنه أن يحبط علم المرء ويجرده من كل قيمةٍ !!

والهدي الذي جاء به الرسول الكريم - ﷺ- يقوم مقامه في هذه الدنيا بعد وفاته، فنحن الآن مطالبون بالتبعية لهذا الهدي النبوي المقدس تماماً كما كان المعاصرون للرسول مطالبين بالتبعية لذات الرسول في كل شئونهم .

إن مخافة الله تجعل الإنسان غايةً في الجدية، فلو استقرت مخافة الله في قلب أحد الناس حقاً ، لاهتدى بمقتضى طبيعته إلى الأمور التي لا يكاد يدركها الآخرون حتى بالرغم من إرشادهم إليها مرةً وأخرى !

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ

فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ﴿٦﴾ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾

لَعَنِتُّمْ: لأثمتم وهلكتم.

إذا أخبر شخص ما عن غيره بما يسيء إلى سمعة الأخير ؛ فإن تصديق مثل هذا الخبر فور سماعه يتنافى مع مزاج التحفظ والاحتياط الإيماني تمام المنافاة ، إذْ يجب على السامع في هذه الحالة أن يتخذ كل ما يلزم للتأكد من صحة الخبر أو كذبه ، وألا يبني رأياً أو حكماً إلا بعد التحقق النزيه المحايد وليس قبله ، وكثيراً ما يحدث أن المرء إذا بلغه خبر من هذا النوع ، يأخذ أصحابه من فورهم في الحديث عن القيام ببعض الإجراءات ضد الشخص المخبر عنه ، وهذا موقف يتسم بمنتهى عدم المسؤولية فلا يجوز لامرئٍ ما أن يحكم على أخيه بناء على خبرٍ قبل التثبت منه ، كما لا ينبغي لأصحابه بدورهم أن يشيروا عليه بالإقدام قبل الوقوف على حقيقة الأمر .

والذين يوفقون إلى طريق الرشد والهداية ينشأ في داخلهم مزاج يختلف عما كانوا عليه قبلئذٍ ، حيث تعود نفوسهم الآن تتقزز من توجيه التهم نحو الآخرين ، وهم يفضلون الصمت على الكلام في أمر لا يعرفون كنهه ، ومزاجهم هذا علامة تدل على أنهم قد ظفروا من رحمات الله بنصيبٍ ، وأن حياتهم وأعمالهم يتحكم فيها في الواقع ذلك الإيمان الذي هم يقرونه بألسنتهم !!

﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا

بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾

بَغَتْ: اعتدت واستطالت وأبت الصلح .

تَفِيءَ: ترجع.

وَأَقْسِطُوا: اعدلوا في كل أموركم.

الْمُقْسِطِينَ: العادلين فيحسن جزاءهم.

لاَ يَسْخَرْ: لا يهزأ ولاينتقص.

كيف ينبغي أن يعايش المسلمون بعضهم بعضاً ؟ جواب ذلك باختصارٍ هو أن يتعايشوا كإخوةٍ متحابين، فرابطة الدين ليست بأقل من رابطة الدم والقرابة بأي وجه من الوجوه، وإذا وقع بين رجلين من المسلمين خصام أدى إلى قتال ، فلا يجوز للباقين أن يلوذوا بالصمت أو يوسعوا شقة الخلاف بين الاثنين بوسائل التحريش والوشاية ، وإنما يجب عليهم أن يهبّوا بدافع الأخوة والمحبة لتسوية النزاع بمقتضى الحق والعدل وإيجاد الصلح والتفاهم بينهما .

وقد يحتمل إذا تخاصم رجلان أو طائفتان من المسلمين أن يقف الباقون من المتقاتلين على الحياد ، أو ينحاز بعضهم إلى طائفة وبعضهم الآخر إلى طائفة أخرى ، استجابة لدواعي التعصب العائلي أو التحزب المذهبي ، فيتقاتلون جميعاً بينهم ، وكل هذه الطرق بعيدة عن روح الإسلام تماماً ، والمنهج الإسلامي الصحيح هو البحث عن وجه الحق في الأمر المتنازع عليه ، والوقوف إلى جانب المحق ، وإرغام مَنْ ليس على الحق على قبول الحكم العادل في القضية محل النزاع ، والذي يخاف الله ويخشاه ليس من شأنه أبداً أن يتلذذ برؤية أخويه في الدين يتقاتلان ، وإنما هو يحزن أشد الحزن ويتململ

تململ السليم إذا ما وقع بصره على منظرٍ كهذا ، ولن يشعر بالهدوء أو الراحة ما لم يبذل جهده في الإصلاح وتطبيع العلاقات بين الاثنين ، وهؤلاء الذين يصير الإيمان بالله وتقواه عندهم مدخلاً إلى عالم الرحمات الإلهية!!

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ ﴾

وَلاَ تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ: ولا يعب ، ولا يطعن بعضكم بعضًا.

وَلاَ تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ: لا تداعوا بالألفاظ المستكرهة.

إن عاطفة التعاظم والاستكبار - بمعنى التطلع نحو العظمة والكبرياء وحب البروز - كامنة داخل بعض البشر ، وهذا هو السر في أن شخصاً لا يكاد يعثر في غيره على نقيصةٍ ما ، حتى يتناولها بالتضخيم ويبالغ في إبرازها للناس ؛ وذلك لكي يثبت لهم أنه " كبير " وغيره " صغير " ... وهكذا يهزأ الإنسان بأخيه الإنسان ، وهو يلمزه ويذكره بلقب السوء سعياً منه وراء إشباع عاطفة التعاظم والكبرياء الكامنة فيه .

غير أن أساس التفاضل ومعيار الصلاح ليس ما يقرره المرء من تلقاء نفسه ، وإنما الصالح هو الذي يعتبر صالحاً عند الله ، والعكس صحيح . ولو استقر الشعور بهذه الحقيقة في نفس الإنسان لقضي على عاطفة كبريائه ، ولصار الاشتغال بلمز الغير والنيل من عرضه، وتناول الآخرين بالتعييب وذكرهم بما يكرهونه من الأسماء والألقاب لصار يبدو له كل ذلك لغواً فارغاً ، وعبثاً محضاً ؛ لأنه سيدرك أن مراتب الناس ودرجاتهم سيتم تحديدها عند الله عز وجل .. إذن فكم سأكون سخيف الرأي لو أنني احتقرت اليوم أحد الناس وكان هو في عالم الآخرة من بين عباد الله المكرمين ؟!

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾

كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ: هو ظن السوء بأهل الخير.

وَلاَ تَجَسَّسُوا: لا تتبعوا عورات المسلمين.

فَكَرِهْتُمُوهُ: فقد كرهتموه فلا تفعلوه.

إذا ساء ظن الواحد منا بشخصٍ ما ، صار كل أمره عنده موضع الريبة والاشتباه ، حيث يسير ذهنه بالنسبة إلى ذلك الشخص بعدئذٍ في الاتجاه السلبي ، مما يجعله يفتش عن عيوبه أكثر من محاسنه ، ويعود النيل من عرضه وتشويه سمعته بنشر مساوئه بين الناس هوايته المفضلة..! وسوء الظن هو مصدر معظم الشرور والمفاسد الاجتماعية ، ومن هنا لابد للمرء أن يكون على حذر دائم بهذا الخصوص ، فلا يسمح للظن السيئ باقتحام قلبه أو ذهنه أبداً .

ولئن بلغك عن أحد الناس شيء يبعث على سوء الظن به ، فبإمكانك أن تلتقي به مباشرة لكي تتحدث إليه في هذا الشأن ، وأما ذكرك إياه بالسوء في غيابه ، حيث لا يمكنه أن يتولى الدفاع عن نفسه ، فذلك عمل دنيء جداً وبعيد عن الأخلاق والمروءة كل البعد ، ومن المحتمل أن يقع المرء في أخطاء كهذه بصورة وقتيةٍ ، إلا أنه لن يصر على خطئه أبدا لو كان قلبه مليئاً بخوف الله ، فإن خوف الله سرعان ما ينبهه على خطئه ويجعله بالتالي يتخلى عن فعله ويرجع إلى الله راجياً عفوه وغفرانه !!

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾

توجد بين الناس فوارق شتى ؛ كفارق اللون والجنس والشعب والوطن .. إلخ ، والغاية من جميع هذه الفوارق إنما هي التعارف وليس التمايز أو التفاضل ، والسبب في معظم الشرور والآفات أن الناس يأخذون في تفضيل بعضهم على بعض بناء على مثل هذه الفوارق؛ مما يؤدي إلى الفرقة والخصومة والعصبية التي لا تعرف حداً تقف عنده !!

والبشر كلهم وحدة واحدة من حيث مبدؤهم ، وإن كان هناك أساس للتمييز أو التفاضل بينهم فإنما يتمثل ذلك في شيءٍ واحد هو تقوى الله . والتقوى شيءٌ لا يعلمه علماً حقيقياً إلا الله ... ولذا فالله وحده دون أحدٍ سواه يستطيع أن يحدد قيم الناس وأقدارهم تحديد العليم الخبير !!

﴿ ۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

آمَنَّا: صدقنا بألسنتنا وقلوبنا.

أَسْلَمْنَا: استسلمنا خوفا وطمعا .

كانت هناك عدة قبائل صغيرة في ضواحي المدينة، وهؤلاء ، وإن كانوا قد اعتنقوا الإسلام في أعقاب الهجرة النبوية ، إلا أن إسلامهم لم يكن وليد ثورة فكرية عميقة ، والمؤمن عند الله حقاً هو الذي يدرك الإسلام كحقيقة تسري في أعماق قلبه وتشربها روحه، والذين يدخلون في دين الله على هذا النحو ، يظفرون بيقين راسخٍ لا يزول ولا يتزلزل ، وهم يكونون مستعدين للثبات عليه حتى ولو اقتضى الأمر التضحية بالمال

والنفس، والمرء إذا صدر منه عمل صالح فقلما يطيق الصبر على إخفائه ، وإنما هو يميل في الغالب الأعم إلى إظهاره ، في حين أن هذا الإظهار يحبط عمله ، والعمل الصالح في الواقع هو الذي يُمارس لأجل الله ، وإذا كان الله خبيراً بكل شيءٍ ، لا تخفى عليه خافية، فما الذي يدعو المرء إلى إظهار عمله والإعلان عنه ؟!

﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَـٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَـٰنِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

لا يَلِتْكُم: لا ينقصكم.

أَتُعَلِّمُونَ اللهَ بِدِينِكُمْ: أتخبرونه بقولكم آمنا.

لو اهتدى شخص ما إلى الإسلام أو تحقق على يديه عمل إسلامي ما ، فيجدر به أن يعتبر ذلك نتيجة النصر الإلهي ، إذ الإيمان والعمل الصالح كلاهما يتوقف على توفيق الله وفضله ؛ ولذا يجب على المرء إذا وفق إلى خيرٍ ما أن يتوجه إلى الله بالشكر والامتنان ..

وبدلاً من هذا إذا أخذ الرجل يمن بذلك على إخوانه في الدين ، فكأنما هو يقول بلسان حاله: إن لم أكن قد فعلت ما فعلت ابتغاء وجه الله ، وإنما فعلت ذلك رياءً ونيلاً للحظوة لدى الناس!!. إن الله سبحانه يحيط علماً بكل شيءٍ على نحوٍ مباشرٍ فمن يعمل شيئاً لأجل الله ، فليكن واثقاً من أن ربه مطلع على عمله بدون اطلاعه إياه عليه !!